سؤال المقاصد في الفكر الإسلامي المعاصر
قراءة في كتاب: "أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية"
للأستاذ الدكتور عبد الرحمن العضراوي

سؤال المقاصد في الفكر الإسلامي المعاصر قراءة في كتاب: "أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية" للأستاذ الدكتور عبد الرحمن العضراوي

محمد الناصري، أستاذ الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب.

يمتلك كتاب الأستاذ عبد الرحمن العضراوي[1] "**أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية**"[2] خصائص الكتاب المحفز على النظر المشجع على البحث، واستئناف القول في سؤال المقاصد في فكرنا العربي والإسلامي.

فالكتاب يتميز بكتابة تستمد قوتها من كفاءتها في الإنشاء المتماسك والمبني على قواعد الحوار الهادئ والرصين، كتابة تعرف حدودها بدقة، وتتجه لبلورة تصورات جديدة بمنهج جديد ومفاهيم جديدة، بهدف تبليغ رسالة البحث في قضايا عديدة ذات ارتباط مباشر بسؤال المقاصد.

تكشف قراءة المتن الفكري للأستاذ عبد الرحمن العضراوي الصادرة قبل هذا الكتاب، عن قدرة متميزة في استثمار أستاذنا لجوانب كثيرة من معرفته بتاريخ فكرة المقاصد، من أجل المساهمة في بحث بعض اشكالات فكرة المقاصد في فكرنا العربي والإسلامي، وهي تعكس جهوده المتواصلة في مقاربة سؤال المقاصد وصعوبات توطين الدرس المقاصدي في فكرنا الإسلامي المعاصر.

لا جدال في أن مقالات الكتاب تعبر عن درجة تمرس صاحبها بإنتاج المعرفة المقاصدية، يتحلى هذا ليس فقط في الكفاءة التحريرية، بل إنه يتعدى ذلك، لنجد أنفسنا أمام نصوص تتجه للبرهنة على قضايا ذات معالم دقيقة في مقاربة سؤال المقاصد، وهذا الأمر الأخير، يبرز ما يتمتع به الباحث من وضوح في الرؤية، ويمكن قراءه من متابعة عمليات التركيب والتحليل، المنجزة في أبحاثه بكثير من العناية والتسلسل.

يمكن تبرير المعطيات التي نحن بصدد تسطيرها في هذا التقديم انطلاقا من تجربة الأستاذ عبد الرحمن العضراوي في البحث المقاصدي، فقد أنجز أبحاثه الأولى قبل عقود من الزمن، حيث نشر رسالته الجامعية "الفكر المقاصدي وتطبيقاته في السياسة الشرعية"، وتوالت بعدها أعماله موزعة بين اهتمامين كبيرين، الابستمولوجيا ومقاصد الشريعة.

---

[1] عبد الرحمن العضراوي، أستاذ جامعي وأكاديمي مغربي، يشتغل أستاذا لأصول الفقه ومقاصد الشريعة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب، وهو رئيس المجلس العلمي المحلي لبني ملال وعضو المجلس العلمي الأعلى، له العديد من المؤلفات العلمية والمشاركات في مؤتمرات دولية ووطنية، مدير مركز الدكتوراه، ومنسق ماستر الحوار الديني والثقافي وقضايا الاجتهاد والتجديد.

[2] عبد الرحمن العضراوي، أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية، دار الأمان، الرباط، ط، الأولى، 2024م

تُفهم في نظرنا قوة الكتابة والتحليل والنقد والحوار المستخدمة في تركيب مادة كتاب "**أسئلة مقاصدية في قضايا معرفية**"، باعتبارها محصلة لجهد متواصل في تحسين أدوات التفكير، وهي تعكس درجة من درجات تطور الوعي بإشكالات الدرس المقاصدي في ذهن عبد الرحمن العضراوي، مما تجعله أحد رموز الفكر المقاصدي المغربي والإسلامي المعاصر.

لا تخرج أبحاث هذا الكتاب عن الأفق الفكري الناظم لجهود أستاذنا في مجال البحث المقاصدي، إلا أننا في هذا الكتاب لاحظنا طغيان المقاربات المنهجية العامة على اغلب مباحث الكتاب. لقد استطاع الهاجس المنهجي المعرفي أن يوحد المعالجات ويطبعها بطابع خاص، بل إنه استطاع أن يحولها إلى مقاربة فلسفية ذاتية، مقاربات تعبر عن رؤية الباحث للقضايا موضوع النظر والتفكير.

وعندما كان الباحث يلجأ أحيانا لاستحضار بعض النماذج من تاريخ القول المقاصدي في سياق عمليات العرض والتحليل والبرهنة، فإن غايته الأساس كانت تتمثل في البناء الذي يكون بصدد تركيبه وإنشائه للتعبير عن موقف أو إبداء رأي أو نقد رأي مخالف. وقد وفق الكاتب في نظرنا كثيرا في بلورة تصورات ومعطيات تعبر عن مواقفه الشخصية وتقدم التفكير في القضايا موضوع التفكير.

من أجل إبراز وتوضيح ما نحن بصدده، نشير بصورة مختزلة إلى أهم النتائج والخلاصات التي تبلورت في مباحث هذا الكتاب، نستطيع القول بأن المباحث الثمانية المتضمنة في الكتاب متكاملة، كما نعتبر أن البحث المتعلق: "بالتطبيق المقاصدي في المنهج الخلدوني"، والمبحث المتعلق: "بأسئلة الإصلاح وأجوبة المقاصد في سلفية الطاهر ابن عاشور"، يعدان بمثابة محاولة تطبيقية لأغلب نتائج الأبحاث الأخرى، فقد حاول الأستاذ من خلالهما الوقوف على الآثار الفكرية لمستأنف النظر المقاصدي في الفكر الإسلامي المعاصر، ليفكر من خلالهما في الحلول الممكنة التي يمكن أن يسهم بها كل من ابن خلدون والطاهر ابن عاشور في قضايا الإصلاح والنهضة في فكرنا العربي المعاصر.

إن استدعاء كل من ابن خلدون والطاهر بن عاشور، لم يأت عند أستاذنا اعتباطا، وإنما لغاية معرفية آكدة، تتمثل في تجاوز عوائق الدرس المقاصدي في فكرنا الإسلامي. بتعبير آخر، فالأستاذ بهذا الاستدعاء يحاول الإجابة عن سؤال لماذا يغيب الإبداع في مقاربة سؤال المقاصد في فكرنا العربي والإسلامي؟ ماهي الشروط التي تجعل المعرفة

المقاصدية قادرة على تجاوز دائرة النقل والشرح والاتباع والتقليد، وتمكنها من بلوغ عتبة الإبداع والتجديد من أجل تثوير النص القرآني؟

عندما تشكل هذه الأسئلة الخلفية الفكرية الموجهة لتأملات باحث منخرط في إنتاج الفكر المقاصدي، فإنها تقدم لنا شهادة دالة على كيفيات النظر إلى موضوع التقليد والتكرار والاجترار الذي يطبع التأليف في المقاصد، وتتيح لنا في الوقت نفسه معاينة كيفية من كيفيات معالجة هذا الوضع، بالصورة التي تحولها من مجرد بحث علمي إلى بحث يتوخى إنجاز ما يسعف بتطور الدرس المقاصدي، وذلك بمحاصرة العوامل التي تقلص من جذوته وتحصره في دائرة الاتباع والتقليد والاكتفاء بالتكرار والاجترار.

ولهذا جاءت المقدمات المفتتح بها الكتاب، تعبيرا عن جهد لا يمكن إنكاره في باب شحذ العمليات الذهنية المساعدة على التفكير المستقل، التفكير المساعد على إنضاج الأسئلة وصوغ المفاهيم الرامية إلى بناء التصورات المفيدة في معالجة القضايا موضوع التفكير والنظر.

يصرح العضراوي مؤكدا "إن القراءة المعرفية لمقاصد الوحي، فعل عقلاني متجدد لعلاقة المعرفة القرآنية بالواقع الاجتماعي، ولذا فهي اجتهاد حضاري بمقاصد الوحي في الواقع الاجتماعي من شأنه فتح سؤال التفكير في صناعة الإنسان وصناعة الاجتماع الإنساني، عبر وسائل منهجية تتكامل فيها مناهج علوم الوحي وعلوم الإنسان وعلوم الكون. ولا حقيقة للتكامل المعرفي دون الإدراك الحقيقي لفلسفة العلم، إذ نظرية المعرفة لا يمكن فهمها إلا عبر فلسفة العلم، التي لا يتم استكشاف القول فيها إلا من القراءة النقدية لتاريخ العلم الديني والطبيعي، وتتبع تطور قضاياه النظرية والمنهجية والمفاهيمية والعلائقية. وذلك بما يحقق كليات مقاصد الوحي المصلحية والأخلاقية والحقوقية في العمران السياسي والاجتماعي والعلمي، وبناء قيم التعارفية وعدالة الإنصاف في سياقات التجاذب بين ضرورة بناء استراتيجية واقعية وعملية الحوار الحضارات الذاتي والعالمي، وبين المعالجة الموضوعية المولدات الصراع المعنوي والمادي داخل الحضارة الواحدة ثم بين الحضارات المختلفة[3].

كما يصرح أن النص عقل، وعقلانيته كلية وشاملة تتناول الروح والحس، فهي بالضرورة أرقى وأقوى من العقلانية الإنسانية المجردة، كيفما تلونت وتجددت ووسمت بمسميات جاذبة نحو الحداثة وما بعد الحداثة.. وهذا من

[3] ص9

شأنه مراجعة ثنائية العقل والوحي، التي يستنتج منها أن العقل منقطع عن الوحي، وأن الوحي منقطع عن العقل. وهو استنتاج ولد آثارا معرفية غير سليمة ودقيقة في الإدراك العلمي المقاصد الوحي، ثم في الإدراك العلمي للعقل المجرد الحسي البرهاني، وفي الضبط المعرفي المنهجي لعلاقة العقل المجرد بالعقل الفطري. إذ في فهم إشكالية الفهم والتأويل لهذه القضايا المعرفية سيكتشف الفهم العميق لعقلانية الوحي[4].

يعلي العضراوي من العقلانية المقاصدية ليجعل منها مشروعا لمنهج تأويلي معاصر ومتجدد في بناء نقد التأويل العقلاني الوصفي، الذي يفرض التعارض بين القصدية الإنسانية غير قابلة الانفصال عن القومية الدينية في جلب المصالح الضرورية والحاجية والتحسينية. كما يحدد الباحث أفق أسئلته المقاصدية في تناوله القضايا المعرفية المثارة في الكتاب، متجليا في مدى ضرورة العقلانية الإنسانية لتكاملية الروحي والمادي المؤسسة على قانون التوازن[5].

هذه أبرز خلاصات المقالات الست المخصصة للمقاصد والمعرفة والقيم، ففي هذه المقالات يجتهد الباحث في صوغ مفاهيم جديدة من قبيل (العقلانية المقاصدية، العقلانية الأخلاقية، المصالح الميثاقية، قصدية التسامح....).

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المفاهيم المذكورة لا تتخذ طابع الإشارة العارية من الدلالة، بل إن استاذنا يحاول شحن المفاهيم المذكورة بأمثلة ومعطيات مشخصة، يستلهم فيها دروس التاريخ، إنه يدافع عنها وعن صلاحيتها الإجرائية الوظيفية بالاستناد إلى تاريخ الفكر وتاريخ محاولات التجديد فيه، كما بلورته مدارس تيارات فكرنا العربي والإسلامي.

تجمع نتائج الأبحاث بين التفكير المجرد في القضايا التي ذكرنا وبين خلاصات تجربة منخرط في التعليم المقاصدي والإنتاج الأصولي ازيد من ثلاثين سنة داخل الجامعة المغربية، وهي تأخذ قيمها النظرية من هذه الخلفية المزدوجة، ومن مساعي أستاذنا الرامية إلى إنتاج مقالة[6] مقاصدية مجددة في فكرنا المعاصر. فكيف يمكن تحقيق التجديد في فكرنا العربي والإسلامي المعاصر عند عبد الرحمن العضراوي؟

---

[4] ص10

[5] ص10

[6] المقالة تأتي عندنا هنا بمعنى أطروحة.

قبل الإجابة عن هذا السؤال نشير إلى أن مقاربة الكتاب لسؤال الإصلاح وأسئلة الاجتهاد والتجديد، لا تندرج ضمن الرؤى الطوباوية أو المحاولات التي تكتفي برسم التصورات، شأن العديد من الكتابات التي ما فتئت تبلور في جهود الباحثين في مجال الفكر المقاصدي. إن منظور المؤلف العضراوي للاجتهاد والتجديد في فكرنا الإسلامي ينطلق من دفاعه أولا، عن ضرورة الانخراط في سياق تاريخ الفكر المقاصدي، وذلك باستيعاب دروس هذا الفكر، ومحاولة تمثل تجاربه. لكنه لا يكتفي بمجرد رصد التجارب، بل إنه يدعو بعبارة صريحة إلى لزوم المشاركة في الحوار الدائر في تاريخ الفكر المقاصدي، وبناء وجهة نظر خاصة في القضايا موضوع الحوار، لنتمكن من الانتقال من عتبة التقليد إلى عتبة الإنتاج المعبر عن إشكالات ذاتنا المتحولة في الزمان.

ومن هنا إلحاح أستاذنا على التسلح بالمقاربة النقدية، فالنقد في نظره هو الذي يبرز مظاهر الاتصال والانفصال بين فكرنا المعاصر والتراث من جهة، ثم بينه وبين الفكر الغربي من جهة ثانية. هذا الطريق الذي يمكنه أن يقود إلى نمو الفكر المقاصدي في مجتمعنا، حيث تكفل الممارسة الفكرية النقدية، إمكانية بناء نظر فكري مطابق لذاتنا الإسلامية في صيرورتها، ومستوعب في الآن نفسه وبصورة خلاقة لمعطيات ودروس تاريخ الفكر الإسلامي.

ولا يكتفي الباحث في موضوع الجواب عن التجديد في الفكر الإسلامي، بإبراز آلية النقد في التفكير، بل إنه يضيف إليها مبدأ آخر نعتقد بأهميته الكبيرة في مجال الفكر، وذلك رغم التراجع الذي عرفه هذا المبدأ تحت ضغط آليات فكرية أخرى. يتعلق الأمر بمبدأ الاجتهاد، وهو يعتبره من الشروط الأساسية التي يمكن أن تساهم في تجديد الفكر المقاصدي.

يقول العضراوي: إن المحاولة هنا وهي فعل عقلي لا تفيد التهور ولا التسرع، المحاولة المقصودة عبارة عن عقل من خصائصها المميزة له:

- أنه عقل مقدم للشرع ومصالحه على منتجات العقول البشرية مهما علا شأنها أو نزل.
- أنه عقل روحه تفاعل ثلاثية العلم والإيمان والعمل.
- عقل مبدؤه التعليل، والنقد والتجديد والإبداع.
- عقل محقق للتكامل المعرفي والانسجام التفاعلي بين السنن الشرعية والسنن التاريخية والسنن الكونية[7].

[7] ص104

ويتأسس على الخصائص –في نظر أستاذنا– قواعد كلية للعقلانية العلمية في المعرفة المقاصدية يمكن إجمالها في القضايا الآتية:

- القصدية قانون شرعي وكوني منضبط
- لا تقصيد عقلي أو نصي يعارض تكامل العقل والوحي.
- لا تقصيد إلا بتعاضد الأدلة العقلية والنصية.

وبهذا فالعمل الذي يضطلع به أستاذنا يذهب بعيدا في توليد الفكر المقاصدي عن طريق العقلانية التقصيدية، الذي يراهن من خلالها على إحداث ذلكم الإصلاح الشامل لمختلف مجالات حياة المسلمين. المحاولة هنا ترفض التهيب من المقاصد وإعمالها أو التهيب الذي يدخل في مجال النظر المقاصدي حسابات تؤدي في النهاية إلى تقليص جذوة هذا النظر. على اعتبار أن العقلانية التقصيدية التي يشير إليها أستاذنا بحكم بحثها في المصالح الكلية والجزئية الأصلية والتبعية، العينية والكفائية، هي ذاتها تعد منهجا اجتهاديا متكاملا دعامته ثلاث وهي:

- المنهج الوصفي مبني على التفاعل النصي.
- المنهج الاستقرائي مبني على مبدأ التعاضد بين العقل والنص.
- المنهج التجريبي مبني على مبدأ التوظيف الحسي والاختبار.

وإن تفعيل هذا المنهج يضع حدا للتهيب أو التسيب في معرفة المقاصد الشرعية[8].

لا يكتفي الدكتور عبد الرحمن العضراوي في هذا الكتاب بمدح العقل المقاصدي، بل إنه يدافع عن الاجتهاد والتجديد في فكرنا الاسلامي وقد اختار عنوان مقالة " المقاصد والتأويل دراسة في تأصيل العقلانية العلمية في المعرفة المقاصدية"، وجعله عنوانا عاما ودالا على المضمون العام لمباحث كتابه. هذا الامر يوضح جوانب هامة من الرسالة التي يبعثها هذا الكتاب لقرائه.

[8] ص101

لابد من الاشارة هنا إلى أن نصوص الكتاب وأغلبها قدم في صورة في صوره بحوث منشورة سلفا أو عروض وملتقيات وندوات علميه، في فترات زمنية ليست بالقصيرة، وهي دراسات ترتبط جميعها بسؤال المقاصد، ولهذا فالدراسات الثمانية وإن اختلفت أزمنة كتابتها فبينها ناظم يجمعها وخيط رفيع يوحدها في الموضوع والقصد.

أشرنا فيما سبق؛ إلى أن أبحاث كتاب: "**أسئلة مقاصدية في قضايا معرفيه**" موجهه أساسا للتفكير في سؤال المقاصد وكيفيات زحزحه التقليد المتسرب لبنيته في فكرنا العربي المعاصر، بمباشرة التفكير في شروطه وشروط الاجتهاد والتجديد الممكنة، ويمكن أن نضيف إلى ذلك وجود مسلمة كبرى جامعة، ومعبر عنها بأشكال وصور مختلفة في مقالات الكتاب، ونقصد بذلك إيمان الكاتب باستحالة التفكير مقاصديا خارج مكاسب تاريخ علم الأصول. وإن الاجتهاد والتجديد المقاصدي يتطلب عدم نسيان مكاسب ومباحث علم أصول الفقه من اجل إغنائها وتجديدها، اعتمادا على قواعد ابيستيمولوجيا متجددة في الكشف عن ترابط القيم مع المصالح الإنسانية الحقيقية لا الموهومة، مصالح مسنودة الى مرجعية الوحي لكنها متجددة في تجربتها التاريخية ونسبيتها العقلية، وهي مصالح قطعية وظنية، كلية وجزئية، عامة وخاصة، لا تفارق جمع البشرية على الكلمة السواء في الفهم والتأويل لقضايا المعرفة والأخلاق والحرية والسلم، وذلك من المنظور المعرفي لا الأيديولوجي[9].

وقد وفق الباحث في بلورة مقالة طغى عليها الهاجس المنهجي، وهاجس بناء الرأي على المعطيات التحليلية، وشكلت هذه الخصائص جانب القوة في أبحاث هذا الكتاب، إضافة إلى التماسك النصي ومنحى الجدل والحوار المتسم بكثير من الوضوح والدقة.

عود الأستاذ عبد الرحمن العضراوي نفسه منذ كتاباته الأولى في المجال البحثي، الالتزام بمقومات البحث العلمي، الأمر الذي منح إنتاجه في مختلف التيمات البحثية التي اعتنى بها مواصفات الجدة في الموضوع، والجدية في الطرح، والعمق في التناول، لقد اختار استاذنا أفقا محددا في البحث لم يحد عنه، وهو يعد أطروحته الجامعية ثم أبحاثه التي جاءت بعدها، وإن كان قد حاول تطوير جوانب منه سواء بالبحث في قضايا الاجتهاد والتجديد في الفكر العربي الإسلامي أو البحث في مفاهيم الابستمولوجيا، وعلم الاجتماع الديني، وفي أصول الفكر الغربي، وصور تمثلها

[9] ص209

في الفكر العربي المعاصر. إن همه الأكبر يتأسس طيلة مساره البحثي، في سعيه المتواصل لبناء البحث الرصين والمتزن.

نستطيع القول في ختام تقديمنا وليس قراءتنا لكتاب أستاذنا، نستطيع القول، ونحن نطالع الإنتاج المقاصدي الإسلامي المعاصر، أن الاهتمام ببناء نظرية مقاصدية معاصرة قد أخذ من هذا الإنتاج حظا وافرا، وقد يكون مما يفسر ذلك هذا الانقطاع الذي حدث بين الفكر الإسلامي وفكرة المقاصد لمدى قرون طويلة لم تتخللها إلا مؤلفات قليلة أو تكاد تكون منعدمة، لكن إذا كان الاهتمام ببناء نظرية مقاصدية واسعا ومشتركا بين عدد كبير من الباحثين والمؤلفين في الفكر المقاصدي، فلن يفوتنا أن نلاحظ أن هناك اختلافات بين هؤلاء المؤلفين من حيث المناهج ومن حيث الإشكالات وأيضا من حيث الوسائل التي يطلبون من الفكر المقاصدي المعاصر التوسل بها لبلوغ أهدافه.

يرى عبد الرحمن العضراوي ان الشرط الأعم لبناء نظرية مقاصدية معاصرة تستوعب الفكر الإسلامي هو بناء رؤية مقاصدية نسقية لبناء العلوم والمعارف في أفق الكونية التي تتجاوز الوقائع الذاتية للمجتمعات المسلمة، وهذه الرؤية تبرز ضرورة تكاملية المعرفة على أسس تكاملية منهجية في التعامل مع الظواهر المعرفية والظواهر الكونية كل على حدة او في مجموعهما دفعا لمنهجية التجزيء والتعضية في المعرفة الإنسانية.

يعول العضراوي كثيرا على المنهجية النسقية في إبرار تكاملية الأنساق المعرفية والتي من مقوماتها.

- التركيز على المشترك المعرفي والقيمي.
- فهم المسلمات الجامعة للمعرفة والقيم.
- مآلات التكامل المعرفي في الواقع الإنساني.

ودون هذا سيبقى الحديث عن التجدد الحضاري مجرورا ومحكوما بسؤال كأنه أزلي لا يتجاوز "لماذا تقدم الآخر وتأخر الأنا؟".

يتيح لي كل ما سبق، أن يتضمن عنوان تقديمي للكتاب، الذي أحتفي به، وبمؤلفه أستاذي الدكتور عبد الرحمن الذي أحسبه من مؤسسي الدرس المقاصدي المعاصر، مفردة التقدير، والاحترام لعطائه في الباب. وليسمح أستاذي

أن أختم هذا التقديم، بالتعبير مرة أخرى على سعادتي الغامرة، وأنا انخرط في هذا الاحتفاء الذي أروم من خلاله تقديم رسالة وفاء لأستاذ شكل هم توسيع نشر الفكر المقاصدي في الجامعة المغربية أحد الهواجس الكبرى في حياتهَ طيلة مساره الجامعي الحافل لأكثر من ثلاثين سنة. والسلام.

الموقع الرسمي للأستاذ
الدكتور محمد الناصري

mohammedennassiri.ma | mohammedennassiri@gmail.com

للتواصل